



## القيم العالمية للديمقراطية واققتصاد السوق

أنور ابراهيم

رئيس الوزراء ووزير المالية  
السابق في ماليزيا

### التجربة الشرق آسيوية

اسمحوا لي أن نبدأ بالتأمل في التجربة الشرق آسيوية لأنني أعتقد أنها مهمة بالنسبة لبعض الدول في أكثر المناطق صراعا : الشرق الأوسط وأفغانستان. لعلمكم تتذكرون الآن تقرير البنك الدولي عن "المعجزة الاقتصادية" في شرق آسيا. رغم أن أنظمة بعض دول شرق آسيا لم تكن بالتأكيد ديمقراطية، أو أنها كانت فاشستية إلى حد ما، أو "ديمقراطيات غير تحريرية" حسب وصف فريد زكريا، إلا أن جميع هذه الدول كانت تعتقد إلى حد ما بدور القطاع الخاص ودور المؤسسات الخاصة. ومن الثابت بكل وضوح أنها كانت محقة في ذلك الاعتقاد إلى حد كبير. لا شك أن هذه الدول دفعت النمو بمعدلات مثيرة للإعجاب، وهذا في حد ذاته يفتح آفاقا جديدة للاستشراف والتفكير، وأن لديها رغبة قوية في تحقيق المزيد من الإصلاح والمزيد من الحرية، وهو ما يسمى في هذا السياق بالحكم الديمقراطي.

### الحاجة إلى المزيد من الحكم الديمقراطي

يتساءل بعض أصدقائي في الشرق الأوسط: "لماذا يجب علينا استعمال مصطلح الديمقراطية؟". يمكنكم استعمال أي مصطلح آخر طالما كنتم تتحدثون عن حرية الوجدان والعقيدة، وحرية التعبير، وحرية التنظيم، وسيادة القانون، والفصل بين السلطات، الخ. وعندما تتحدثون عن الأسس الصحيحة والقوية للاقتصاد الكلي في شرق آسيا لا يمكنكم استبعاد مبدأ القاعدة الأساسية للحرية وحقوق الإنسان، وإلا فإن أسئلة المواطنين سوف تستمر: لماذا ندفع الاقتصاد إلى الأمام إذا كنتم لم تفكروا في العدالة أبدا بل تنكرون الحقوق الأساسية لشعبكم؟ وهذا هو الخطاب الذي ظهر أخيرا على شكل صراع كبير في المجتمع المدني وبين المواطنين أنفسهم. وكلما زاد تقدم الدولة وتطورها كلما انفتحت على آفاق جديدة وأفكار جديدة. ومن المؤكد أن مسألة الحرية تمس الكثير من الناس من الناحية العاطفية.

### اقتصاد السوق الصادق يعني الحرية

كنت أحد وزراء المالية القلائل في المنطقة الذين كانوا يحذرون البنك الدولي في ذلك الوقت. حدث أنني كنت رئيسا للجنة التنمية التابعة للبنك وصندوق النقد الدوليين، وأنني حذرتهما من شدة الابتهاج بالمعجزة فقد يكون مصطلح "المعجزة" مضللا. وإلا، فما هو وجه الإعجاز إذا كانت العولمة لم تمس أربعة أخماس الناس في الصين، وأن نصف الصينيين آنذاك كانوا يعيشون في فقر مدقع؟ وما هو الشيء الرائع الذي حدث حتى في ماليزيا؟ عندما كنت وزيرا للمالية كنت أدفع ببعض البرامج مثل الإسكان الشعبي، وجودة التعليم، والصحة، والبنية التحتية الأساسية من أجل نصف سكان البلاد. إذن هناك مصطلحات مقبولة مثل "التنمية" و "التقدم"، وهناك مصطلحات مضللة بالتأكيد مثل "معجزة" و "أسس قوية للاقتصاد الكلي". النقطة ذات الأهمية الكبيرة التي يجب علينا أن نتعلمها هي أنك عندما تتكلم عن اقتصاد السوق فإنما تتكلم عن الحرية.

### التجربة الماليزية

اسمحوا لي مرة أخرى بالعودة إلى الماضي. عندما كنت أؤكد في خطب الموازنات على ضرورة تخفيض الضرائب، لم تكن للموضوع شعبية كبيرة بالضرورة وكانت هناك بعض الخلافات بيني وبين رئيسي آنذاك. كان



يريد موارد ومبالغ كافية لتنفيذ مشاريع عملاقة. كان يريد إنشاء أطول كوبري في العالم، وأعلى مبنى في العالم، وأضخم سد في العالم، وأكبر مدينة في العالم، بينما كنت أحاول تخفيض الضرائب، لأنني كنت أعتقد أنه من خلال تخفيض الضرائب فقط يمكن زيادة الإنتاجية، وأن الأولوية يجب أن تكون لتحقيق أحسن تعليم في العالم، أو على الأقل تحسين التعليم إذا لم تتمكن من الوصول إلى أحسن الأنظمة. أو أن تكون الأولوية لأحسن الخدمات العامة، أو أحسن البنى التحتية، أو أحسن تكنولوجيا للمعلومات، وذلك بدلا من إنشاء بنية أساسية ضخمة من أجل الاستعراض فقط. ولذلك لم أقتبس من آدم سميث بل اقتبست من ابن خلدون للحث على تحقيق إنتاجية أكبر.

### الحكومة الجيدة كقيمة عامة

ولما كانت ماليزيا دولة متعددة الأعراق ومتعددة الأديان، فإنني رجعت إلى ابن خلدون والمصلح الصيني وانج أنشي الذي ينتمي إلى سلالة سونج الشمالية الحاكمة عندما كنت أتحدث عن نفس القضايا: الحكومة والحاجة إلى النظام. المصطلحات المستخدمة في ذلك الوقت لم تكن المحاسبية والشفافية والتحرر من القوانين والنظم، لكنهما كانا بكل تأكيد يتحدثان عن الحكومة الجيدة، وعن إجراءات مكافحة الفساد، والحاجة إلى تخفيض الضرائب وعدم إقبال كاهل المجتمع بالضرائب الباهظة. أعني بذلك أن الوصفة العلاجية كانت صحيحة بصفة عامة، وأنه يجب أن ندع الدول والمجتمعات والثقافات حرية الإبحار بطريقتها الخاصة وإدخال بعض التعديلات الطفيفة. الخطر في هذه المرونة دائما هو أن الناس يسيئون استخدام هذه الأفكار للدفاع عن إجراءات قمعية يستخدمونها لدفع عجلة الاقتصاد مع حماية المحسوبية والفساد في ذات الوقت.

### ميراث آدم سميث

كنت في فلورنسا في الأسبوع الماضي مع آمارتيا سين وإيما روتشيلد وميشيل كامديسيوس .. كان الحديث شيقا .. كنا نحن الأربعة نتحدث طوال النهار وأثناء الليل عن كيفية حل مشاكل العالم. كان رأينا جميعا بطبيعة الحال أن مفتاح الحل هو التنمية والحرية. كنت متحمسا وأنا أتناقش مع هؤلاء الأصدقاء القدامى. أشارت إيما روتشيلد إلى الحاجة إلى إعادة تفسير ثروة الأمم لآدم سميث. قلت: إنني أتذكر حوارتي مع بعض أساتذة الاقتصاد الذين كانوا يقدمون للطلاب مقتطفات قليلة من كتاب ثروة الأمم لآدم سميث دون أن يصروا على أن يفهم الطلاب بوضوح كل أطروحاته: ليس فقط ثروة الأمم بل وأيضا نظرية الوجدان الأخلاقي.

### الحاجة إلى القيم في السوق الحرة

لأننا عندما نفعل ذلك يمكننا أن نواجه الرأي الخاص بتجاوزات الرأسمالية التي يغذيها الطمع، ويربطها كثيرون في دول العالم النامي بالعولمة والرأسمالية والسوق الحرة التي يعتقدون أنها سوق تطبق سياسة عدم التدخل وتصح نفسها بنفسها. أنت لست بحاجة إلى أن تستخدم أي نص كلاسيكي آخر لمواجهة هذه الجدلية، لأن آدم سميث مقنع في حجته المدافعة عن حرية السوق، وقد ساق أمثلة واضحة من التجاوزات الرأسمالية. وهو يذكرنا باليد الخفية وبالضرورة إلى الحماية من التجاوزات شريطة تضمين القيم المعنوية والأخلاقية في السوق. وهذا هو ما تعبر عنه آراء جون روجي بوضوح في حديثه عن "الليبرالية المتضمنة".

### دفاعا عن الأسواق الحرة ..

إنني أطرح هذه القضية لأن من سوء الحظ أن هذا الجدل العنيف بين مؤيدي حرية السوق ومناهضيها يُحرز بعض التقدم. وأخشى أن يؤدي النقد المفرط لكل من صندوق النقد الدولي والبنك الدولي – كما فعل جوزيف ستيجليتز في العولمة والمستأمن منها – إلى إيجاد ذرائع للقادة الفاشستيين المناوئين للسوق الحرة يتذرعون بها بغية التهرب من القيام بالإصلاحات أو التخلي عن فكرة الحاجة إلى السوق الحرة ككل. لكن إذا أردت أن تنجح، لا يمكنك أن تقبل الحلول الوسط في ما يتعلق بالحاجة إلى السوق الحرة كنظام. وإذا أردت أن تنجح اقتصاديا، لا تهتم بما تقوله الإدارة الأمريكية. لكي تنجح – سواء كنت مسلما أو هندوكيا أو مسيحيا، أو كنت من الدول النامية أو الدول المتقدمة – لا بد أن تلتزم بنظام الاقتصاد الحر. لا بد أن تلتزم بمبادئ الحرية الأساسية. أعتقد أن هذا هو الخطاب المطلوب على هذا المستوى بدلا من مجرد الوقوف موقف الدفاع أو الاعتذار.



## الأسواق وتوزيع الثروة

من منا يعتقد في مبدأ الحرية والعمل الحر لكي يدفع الاقتصاد إلى الأمام لا بد أن يفعل ذلك بعقيدة قوية وثقة كبيرة على أساس سجلاتنا السابقة. عندما كنت طالبا في جامعة الملايو في كوالالمبور كنا نتجه قليلا نحو يسار الوسط. وعندما أصبحت وزيرا للمالية سألني بعض زملائي القدامى - الذين أصبح بعضهم أساتذة جامعيين - ”وماذا عن مبدأ التوزيع؟ هل نسيته؟“ قلت لهم إنني ما زلت أذكره. لكننا في تلك الأيام توقفنا عند مجرد التوزيع. وأدركنا أننا مناظرة - كنا نوزع الفقر لأنه لم يكن هناك نمو. وأنا الآن لست بعيدا عن مبدأ عدالة التوزيع لراولز رغم أنني أدرك راولز - نوزيك. لكنك، على الأقل، إذا كنت تدفع عجلة الاقتصاد إلى الأمام، وتمكن الناس، وتشجع العمل الحر فإنك توزع الثروة، ويمكنك أن تضمن حصول المهمشين والفقراء والمضطهدين على فوائد كبيرة من تنمية الاقتصاد.

*إن الآراء التي أعرب عنها الكاتب هي خاصة به ولا تمثل بالضرورة وجهات نظر مركز المشروعات الدولية الخاصة. وإن مركز المشروعات الدولية الخاصة يمنح الترخيص لإعادة طبع و ترجمة و/أو استخدام المواد المتاحة من خلال الموقع الإلكتروني لمعهد التنمية في الفصول الدراسية شريطة أن يتم (1) الإسناد الصحيح للكاتب و لمركز المشروعات الدولية الخاصة (2) و بشرط أعلام المركز بكييف وأين سيقع استخدام هذه المواد.*

مركز المشروعات الدولية الخاصة

(Center for International Private Enterprise)

1155 Fifteenth Street NW • Suite 700 • Washington, DC 20005 • USA

ph: (202) 721-9200 • [www.cipe.org](http://www.cipe.org) • e-mail: [education@cipe.org](mailto:education@cipe.org)